**المحاضرة السابعة**

# الدولة الموحدية (541– 668هـ)

## نشأة دولة الموحدين وانتهاء دولة المرابطين

كانت دولة المرابطين تمتلك أمراء، مثل: ''عبد الله بن ياسين، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي من قبيلة جدالة، والقائد الرباني يوسف بن تاشفين، وأبي بكر بن عمر اللمتوني، وجهادهم في الأندلس والنيجر والسنغال جنوب المغرب.

ولكن في أواخر عهد الأمير على بن يوسف انحرف النظام الإسلامي الخاص بالشورى إلى النظام الوراثي الذي سبب النزاع بين أولاد يوسف بن تاشفين، وحلت بالبلاد أزمات اقتصادية، وفقدت دولة المرابطين الكثير من علمائها وقادتها، والذين بدأت الدولة المرابطية بهم على أسس أهل السنة والجماعة.

ومع ذلك ظهرت دعوة "ابن تومرت" مؤسس دولة الموحدين فى المغرب الأقصى، بعد أن سافر إلى بلاد المشرق؛ لتلقي العلم فى مصر وبغداد، عاد إلى المغرب، واتخذ من الأمر والمعروف والنهى عن المنكر وسيلة لتجميع العباد حوله، ثم القضاء على دولة المرابطين باتخاذه لقب المهدي، وتبشير العباد بالمهدية، وظل رجاله يقنعون العامة في بلاد المغرب بمهديته حيث كانت أفكاره بعيدة كل البعد عن منهج المرابطين "منهج أهل السنة والجماعة".

فقد كانت حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذ من جهاد النصارى في الأندلس هدفا أسمى لوجودها، فما أفزعهم من مقر حكمهم فى مراكش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق الفونسو السادس، وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

**عبد المؤمن بن علي وأحفاده .. " ما بعد ابن تومرت"**

يعتبر عبد المؤمن الرجل الثانى فى دولة الموحدين، وهو المؤسس الفعلي لها بعدما كانت فى طور الدعوة فى عهد ابن تومرت؛ فقد تولى عبد المؤمن بن على بعد وفاة ابن تومرت وبويع من الموحدين، وواصل قتال المرابطين وتوحيد المغرب الأقصى تحت سلطته.

فقتل قائد دولة المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وفتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين فى بلاد السوس في 528هـ.

وواصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم على قوى المرابطين، وإن كانت كلفتهم كثيرا طوال حياة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين؛ لمحبة الناس له وعظمة هيبته في نفوس المرابطين وتوفى في 537 هـ. وهي بداية النهاية لدولة المرابطين.

وقد حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين على أثره انضمت مسوفة إلى الموحدين، وتمكن عبد المؤمن بن على من دخول تلمسان فى 539هـ، وفى نفس العام دخلوا وهران، ثم فاس ومراكش، وهكذا نجح الموحدون فى إسقاط المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير، استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

استخدم الموحدون خطط حروب طويلة الأجل مستخدمين أسلوب حرب العصابات، فقد قضوا على اقتصاد المرابطين، وقوتهم، واستغل النصارى الإسبان الوضع وزادوا الضغط على المرابطين.

وقد صور صاحب الحلل الماشية ذلك بقوله: "تأرجحت نار الفتنة بالمغرب، وبسبب هذه الفتنة اتصلت بالحرب، وارتفعت الأسعار، وتوالت الفتن، وعم الجدب، وقلت المجابي، وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العُدوة، ونقل إليها الكثير من أسلحتها وعددها، فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس. وألح النصارى بالضرب على جبهات الأندلس حين علموا بعجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع؛ لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على الكثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزا، والكفر مقهورا، والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج ابن تومرت المهدي فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال".

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله، وبهذا نجح الموحدون من إقامة دولة على أنقاض دولة المرابطين فى المغرب والأندلس.

**الموحدون والأندلس**

بعد أن استقر الحكم للموحدين فى بلاد المغرب اتجهت أنظار عبد المؤمن نحو الأندلس فتلقى البيعة أولا من أهالي سبتة وأمن أهلها وشكل حلفا مع القبائل المجاورة، من أمثال برغواطة ودكالة، وقاتل الخارجين عن طاعته، وعاش المغرب الأقصى معارك طاحنة ضد المخالفين لبسط نفوذه. وكانت الأندلس تعلم بما يجرى بين المرابطين والموحدين فأعلنت بعض المدن ثورتها وانفصالها عن المرابطين خصوصا بعد وفاة تاشفين فى 539هـ.

فسير عبد المؤمن الجيوش فى 541هـ للسيطرة على الأندلس فسيطر على رندة ثم لبلة ثم مرتلة وشلب، ثم سيطروا على باجة وبطليوس، واستطاعوا أن يخضعوا إشبيلية فى نفس العام، ثم مالقة، واعتبرت إشبيلية حاضرة دولة الموحدين في الأندلس، وبعد أقل من عامين سيطروا على جيان وقرطبة، ولم تبدأ سنة 545هـ حتى سيطر الموحدون على أغلب مدن الأندلس التي كانت تحت سيادة دولة المرابطين، كما استطاعوا السيطرة على الثورات الانفصالية، وبايع الأمراء عبد المؤمن بن على وأطاعوه. بعدها اتجه الموحدون إلى غرب الأندلس وسيطروا على أطراف كمش وباجة ويابرة وحصن القصر.

عهد عبد المؤمن الحكم لأبنائه وراثيا، مخالفا بذلك تعاليم ابن تومرت، فبويع أبو يعقوب يوسف بعد وفاة أبيه عبد المؤمن بن علي، وحدث خلاف بين إخوته الأشقاء وغير الأشقاء على بيعته، ولكن شيوخ الموحدين استطاعوا بعد جهد كبير الإصلاح بين الإخوان، وتمت البيعة ليوسف بن عبد المؤمن فى 563هـ، وسمي باسم أمير المؤمنين، وهو الاسم الخلافي عند الموحدين.

استطاع يوسف بن عبد المؤمن خلال فترة حكمه بسط نفوذه على بقية المناطق الموجودة فى الأندلس تحت سيطرة الموحدين، حيث واجه ثورة ابن مردنيش في الشرق الأندلسي من بلنسية شمالا حتى قرطاجنة جنوبا بقوة جيوشه العسكرية، ومعاهدات الهدنة مع النصارى مما اضطر ابن مردنيش الخضوع للموحدين بعدما كان معولا على تحالفه مع نصارى قشتالة ضد الموحدين. وجاهد فى 580هـ ضد نصارى البرتغال، واستولى على قلعة شنترين، ولكن تجمعت جيوش النصارى ضده.

وتفرقت جيوشه؛ نتيجة سوء التخطيطات العسكرية، وهزم الجيش الموحدي، ولكن استطاعوا المحافظة على قلعة شنترين، ولكن استشهد القائد الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي من طعنة إحدى النصارى، وقتل جميع حرسه الخاص، وحمل جثمانه إلى إشبيلية، ثم إلى تينملل فى المغرب، ودفن بجوار أبيه عبد المؤمن.

**أبو يوسف يعقوب المنصور:** (حفيد عبد المؤمن بن علي وقائد معركة الأرك الشهيرة)

اجتمع عليه شيوخ الموحدين وبايعوه ودعوه بأمير المؤمنين ولقبوه بالمنصور فرفع راية الجهاد وأقام الحدود ونظم أمور الشرع وأصلح شئون الأندلس، كما أنه صرح بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت المؤسس الدعوى لدولة الموحدين، فجالس العلماء وأحرق الكتب المخالفة لأهل السنة والجماعة، وتعتبر السنوات الخمس عشر الأولى في حكم الخليفة الثالث في عصر الموحدين هي العصر الذهبي لدولة الموحدين.

في تلك الفترة ظهر غرور الفونسو الثامن واعتزازه بالنصرانية فكتب إلى سلطان الموحدين؛ يدعوه إلى القتال، مهددا بالقضاء على الوجود الإسلامي فى الأندلس، فاشتد غضب المنصور وأخذته غيرة الإسلام فأمر أن يذاع خطاب الجهاد في جنود الموحدين، وتوحد المغرب بعد أن كان مشغولا بالثورات الداخلية، وتأهب لقتال النصارى في قشتالة، فعبر المنصور في 591هـ الجزيرة الخضراء باتجاه حصن الأرك، والأرك هى المنطقة الحدودية بين قشتالة والأندلس في ذلك الوقت وقد استعد النصارى وتوحدوا، مع دعم البابا في روما، وبمساعدة ملكي ليون ونبرة وجيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا، حتى قدرت قوتهم بـ 150 ألف جندي.

## معركة الأرك الخالدة (9 شعبان 591 هـ/ 8 يوليو 1195م)

خطط المنصور لمعركة الأرك فأشرك الأندلسيين فيها؛ لعلمهم بدروب المدن، والحصون فجعلهم في جيش مستقل ينضوي تحت قيادة أبى يحيى بن أبى حفص: القائد العام للجيوش، وكبير وزراء المنصور، فقسم الجيش المسلم نفسه إلى ثلاثة أجزاء، تولى الموحدون القلب، وأخذ الجند العرب الجناح الأيسر، وأخذ أهل الأندلس الجناح الأيمن بقيادة عبد الله بن صناديد، وانتفضت جيوش المسلمين حاملين أعلامها الخضراء، مرددين: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا غالب إلا الله".

فانتفض الجند فى صباح 9 شعبان 591هـ فى وجه النصارى، وقاتلوا بشدة جنود النصارى المثقلين بالدروع كالسيل الجارف، ولكن عزز النصارى قوتهم بقوى جديدة، وعادوا مرة أخرى إلى المعركة، واستشهد العديد من المسلمين، ومنهم القائد العام للجيوش أبو يحيى بن أبي حفص، وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة، وظن النصارى أن النصر بدأ يعود لهم بعد أن قتلوا قائد القلب للجيش الموحدي، ولكن الجناح الأيمن التابع للأندلسيين، بقيادة عبد الله بن صناديد انقض على النصارى، وأصابوا قلب الجيش القشتالي، واستمرت المعركة ساعات طويلة استبدل المسلمون فيها بقلة العدد الشجاعة والإقدام، فاضطر العديد من جند النصارى إلى الفرار، ولكن ظل الفونسو وفرسانه البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل فهجم عليهم المنصور أمير الموحدين، وأثخن فيهم القتال حتى مات منهم الكثير، ولم يتبق إلا القليل حول الفونسو واقتادوه بعيدا عن ميدان المعركة؛ لينقذ حياته، وانتهى يوم الأرك بانتصار عظيم للمنصور على الفونسو، وسقط حوالي 30 ألف مقاتل نصراني، كما تم أسر حوالي 20 ألفا آخرين، وغنم المسلمون الكثير من معسكرات الإسبان.

وسرعان ما ارتفع نجم السلطان الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور في الأوساط المغربية والأندلسية، وذاع صيته وفرح أهل المغرب كثيرا بذلك الانتصار الذي رد النصارى ارتدادا كبيرا ورفع الروح المعنوية للأندلسيين فى الحفاظ على ديارهم بعد 8 سنوات من انتصار صلاح الدين على الصليبين في المشرق، وعودة المسلمين للقدس بعد احتلال دام 88 عام فعمت الفرحة على جميع أنحاء الأمة المسلمة في ذلك الوقت.

وقد حاول المنصور فى ظل ضعف الحالة المعنوية لنصارى قشتالة أن يقوم باستعادة طليطلة في 592هـ فحاصرها أكثر من عشرة أيام، ولكنه فشل في السيطرة عليها لنقص التموين فاضطر إلى الإنسحاب، وكانت هذه آخر محاولة إسلامية لاستعادة طليطلة. وقد وافته المنية فى 595هـ، ودفن مع آبائه فى تينملل بعد أن أصلح عقائد الموحدين وهم بالجهاد لنصرة الأندلس.

ثم تولى بعد المنصور ابنه محمد الناصر (595- 610هـ/ 1199- 1213م) الذي قضى على العديد من الثورات في إفريقية. وبعد موقعة الأرك عقدت هدنة بين ملك قشتالة الفونسو الثامن والمسلمين. ولكن الفونسو استغل الهدنة في تقوية بلاده ومحالفة أمراء النصارى. وحين وجد نفسه مستعدا أغار على بلاد جيان وبياسة وأجزاء من مرسية. فاضطر الخليفة الناصر إلى الذهاب إلى

الأندلس لغزو قشتالة فعبر البحر بجيشه وذهب إلى اشبيلية لتنظيم الجيش. ومنها اتجه إلى قلعة "شلبطرة" إحدى قلاع مملكة قشتالة واستولى عليها بعد حصار دام 8 شهور. ولكن الفونسو دعا البابا أنوسنت الثالث بروما إلى إعلان الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس. وكان من نتاج ذلك ان اجتمع للإسبان أكثر من 150 ألف مقاتل انطلقوا ليستولوا على حصن رباح والأرك وغيرها. وقام المسلمون بجمع جيش بلغ تعداده 500 ألف مقاتل والتقى الجيشان عند حصن العقاب سنة 609هـ/ 1212م، إلا أن **الموحدين** تلقوا هزيمة قاسية على يد النصارى بسبب الغرور وعدم أخذهم بأسباب النصر.

عاد الناصر لدين الله من إشبيلية منسحباً أكثر وأكثر إلى بلاد المغرب واعتكف في قصره، واستخلف ابنه المستنصر بالله وهو يبلغ من العمر عشر سنوات؛ ومن جديد يُسند الأمر لغير أهله، وتضيع الأمانة من جديد كما ضاعت في عهد هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وكيف قامت الدولة العامرية وكيف حدث ما يسمى بعهد ملوك الطوائف بعد تولية الأمر لغير أهله؟ هكذا يتولى المستنصر بالله وتتوالى الهزائم على المسلمين، كانت موقعة العقاب في سنة (609) من الهجرة، بعد سنوات طويلة جداً من السيادة والتمكين لدولة الموحدين.

وبعد موقعة العقاب ظهرت بعض الأمراض في الجيوش القشتالية فاضطروا للعودة، وهذا مد في عمر الأندلس بضع سنوات أخرى في سنة 614هـ أي: بعد موقعة العقاب بخمس سنوات، ونظراً لتردي الأوضاع في بلاد المغرب، وتولي المستنصر السلطة وهو طفل ظهرت حركة جديدة للاستقلال عن الموحدين، وأنشأت دولة سنية جديدة من قبيلة زناته في بلاد المغرب، هذه الدولة سيكون لها شأن كبير في الأندلس بعد ذلك، وهي: دولة بني مرين في سنة 614هـ.

وفي سنة 620هـ سقطت جزر البليار على يد ملك أراجون بمساعدة إيطاليا، وقتل في جزر البليار عشرون ألفاً من المسلمين، واستقل بنو حفص بتونس، وانفصلوا بها عن دولة الموحدين، وفي نفس السنة مات أمير الموحدين المستنصر وهو يبلغ من العمر (21) سنة فقط، ودار صراع شديد على السلطة فهو لم يستخلف ثم كانت ولاية عبد الواحد عم أبيه من بعده ولكنه خلع وقتل وتولى عبد الله العادل.

أصبح يتولى الرجل الحكم في دولة الموحدين مدة أربع أو خمس سنوات فقط ثم يقتل ويأتي غيره، وسارت الدولة نحو هاوية سحيقة.

**حال الأندلس بعد موت المستنصر بالله**

في سنة 625هـ استقل رجل اسمه ابن هود بشرق وجنوب الأندلس، وكان كما يصفه المؤرخون مفرطاً في الجهل ضعيف الرأي لم ينصر له جيش على النصارى، وفي سنة 629هـ استقل بنو حفص بافريقية، وقي سنة 633هـ استقل بنو زيان في الجزائر، وفي نفس السنة حدث حادث خطير وهام ومروع وهو سقوط قرطبة في يد النصارى، وذلك بعد حصارها عدة شهور، واستغاثت بـ ابن هود الذي استقل كما ذكرنا منذ قليل بشرق وجنوب الأندلس لكنه لم يعر لها اهتماماً، كان ابن هود مشغولاً بحرب ابن الأحمر الذي استقل بجزء آخر من بلاد الأندلس، حتى اضطر أهل قرطبة للتسليم، وكان الرهبان يصرون على قتلهم لكن رفض فرناندو الثالث ملك قشتالة؛ خشية أن يدمر أهل المدينة كنوزها وآثارها الفاخرة، وبالفعل خرج أهلها متجهين جنوباً تاركين المجد العظيم خلفهم.

سقطت قرطبة حاضرة الإسلام، ومن أعظم مدن الإسلام في التاريخ، التي أفاضت على العالم أجمع خيراً وبركة وعلماً ونوراً، والتي فيها ثلاثة آلاف مسجد وثلاثة عشر ألف دار، عاصمة الخلافة الأموية أكثر من 500 عام، والتي فيها أكبر مسجد في العالم، صاحبة ثغر من أعظم ثغور الجهاد في الإسلام، سقطت قرطبة في 23 شوال سنة 633هـ من الهجرة، وتحول مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة، وما زال كنيسة إلى اليوم.

وفي سنة 635هـ استقل بنو الأحمر بغرناطة بعد موت ابن هود في نفس السنة، وسيكون لهم شأن كبير في بلاد الأندلس.

وفي سنة 636هـ بعد استقلال بني الأحمر بغرناطة بسنة واحدة سقطت بلنسية، بعد حصار خمس سنوات متصلة على يد ملك أراجون بمساعدة فرنسا، وكان حصاراً شديداً كاد الناس أن يهلكوا جوعاً، وكان خلاله عدة مواقع أشهرها موقعة أنيشة في سنة 634هـ هلك فيها كثير من المسلمين، منهم الكثير من العلماء، حاول بنو حفص في تونس مساعدة بلنسية بالمؤن والسلاح، لكن الحصار كان شديداً، حتى اضطروا لترك البلد تماماً في سنة 636هـ، وهاجر 50 ألفاً من المسلمين إلى تونس، وتحولت كل مساجد المسلمين إلى كنائس وكانت سياسة مشهورة للنصارى في كل الأراضي التي يسيطرون عليها إما القتل وإما التهجير.

وفي سنة 641 سقطت دانية بالقرب من بلنسية، وفي سنة 643هـ سقطت جيان وهكذا لم يبق في بلاد الأندلس إلا ولايتان فقط، ولاية غرناطة في الجنوب الشرقي من البلاد، وولاية إشبيلية في الجنوب الغربي من البلاد، وهما يمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس. وبعد

هذا مع الأخذ في الاعتبار أن كل ولايات المغرب قد استقلت عن دولة الموحدين، وسقطت بذلك دولة الموحدين، الدولة العظيمة المهيبة المترامية الأطراف. ومنذ 641هـ/ 1244م تعرضوا لحملات المرينيين، ثم فقدوا السيطرة على المغرب الأقصى وانتهى أمرهم سنة 668هـ/ 1269م بعد أن قضى عليهم المرينيون نهائياً.